دراسات

ISSN: 2090 – 0449 Online
ISI International Scientific Indexing, [8140].
AIF Arab Impact Factor for Arabic Scientific Journals, [1.3].

الرؤية الاستشراقية للواقع المغربي
كتاب كرستيان هويل "مغامراتي المغربية" نموذجًا

د. عبد السلام بوطافي

خريج شعبة التاريخ

كلية الآداب والعلوم الإنسانية – سايس

فاس – المملكة المغربية

مُلَخّصْ

تناقش هذه الدراسة قضية الالتزام والمفارقة في كتاب كرستيان هويل "مغامراتي المغربية". الالتزام بنقل الواقع المغربي، كما رآه، والمفارقة المتجلية في قراءته الاستشراقية لهذا الواقع. والكتاب عمومًا عبارة عن ثمرة لزواج جمع بين الصحافة والتاريخ والاستشراق. إلا أن كرستيان هويل لم يستطع الانعتاق من إسار الرؤية الاستشراقية، فقد انطلق من نماذج كان قد تم وضعها من قبل في سياق تميز باختلال موازين القوى بين الشرق والغرب، وأدى إلى إنتاج خطاب ورؤية خاصة بالشرق هي وليدة تلك العلاقة غير المتكافئة. نماذج انطلق منها ليبرر احتلال المغرب بشكل عقلاني مستغلاً ظرفية تاريخية مطبوعة بالصدام بين الغرب والشرق، نتج عنها لقاء دام وعنيف جرت أحداثه على أرض المغرب. وقد جاءت عناوين محاور الدراسة راصدة للرؤية الغربية النمطية للمغرب خاصة وللشرق عامة، ولأطاريحها المبررة للسيطرة عليه، وكانت كالتالي: أطروحة الاستشراق الجنسي؛ الاستبداد الشرقي؛ أطروحة الفوضى المغربية؛ أطروحة التحقير. وتوصلت الدراسة إلى أن الرؤية الاستشراقية ذات المنحى الإمبريالي في كتاب هويل كرستيان المغامر والمثقف، والصحفي، واضحة كل الوضوح، تجلت في كونه لم يعر أدنى اهتمام للمعايير الإنسانية والقيم الأخلاقية، ولم يبد أدنى تعاطف مع المغاربة في محنتهم، وكان منذ البداية على وعي تام بجغرافية وتضاريس الأرض الفكرية التي كان عليها يتحرك، ومنها كان يدير دفة السرد.

بيانات الدراسة:

تاريخ استلام البحث:	٠٣	مارس	٢٠٢١
تاريخ قبـول النشـر:	٢٤	مارس	٢٠٢١

كلمات مفتاحية:

الاستشراق الجنسي؛ الاستبداد الشرقي؛ الفوضى المغربية؛ أطروحة التحقير؛ الشعوب الشرقية

معرِّف الوثيقة الرقمي: DOI 10.21608/KAN.2021.231848

الاستشهاد المرجعي بالدراسة:

عبد السلام بوطافي. **"الرؤية الاستشراقية للواقع المغربي: كتاب كرستيان هويل "مغامراتي المغربية" نموذجًا".**- دورية كان التاريخية.- السنة الرابعة عشرة- العدد الثاني والخمسون؛ يونيو ٢٠٢١. ص ١٥٤ – ١٦٩.

Corresponding author: abdesselamb5@gmail.com

Editor In Chief: mr.ashraf.salih@gmail.com
Egyptian Knowledge Bank: https://kan.journals.ekb.eg
Twitter: http://twitter.com/kanhistorique
Facebook Page: https://www.facebook.com/historicalkan
Facebook Group: https://www.facebook.com/groups/kanhistorique

نُشرت هذه الدراسة في دَورِيةُ كَان التَّارِيخية للأغراض العلمية والبحثية فقط، وغير مسموح بإعادة النسخ والنشر والتوزيع لأغراض تجارية أو ربحية.

Open Access This article is distributed under the terms of the Creative Commons Attribution 4.0 International License (https://creativecommons.org/licenses/by-nc-nd/4.0), which permits unrestricted use, distribution, and reproduction in any medium, provided you give appropriate credit to the original author(s) and the source, provide a link to the Creative Commons license, and indicate if changes were made.

مُقدِّمَةُ

تقدم مذكرات كرستيان هويل[1] "مغامراتي المغربية" تأريخًا مصاحبًا للأحداث، واستنباطًا لها من الداخل، باعتبار صاحبها شاهدًا مشاركًا. هذه الشهادة/ النص سنحاول اختراق بنيتها السطحية لاستكشاف تدفق النسغ الاستشراقي/ الاستعماري في جذورها، بوصف الاستشراق معرفة/سلطة غايتها تكريس الهيمنة والسيطرة الأوروبية على الشرق، ولنرى كيف تتحول المعرفة/معرفة الآخر إلى مجرد إنتاج يبغي ببساطة تبرير الهيمنة وإعادة الصياغة والاستحواذ[2].

إن البحث عن المضمر والمخفي في النص الذي وضعه هويل عن المغرب، والذي هو عبارة عن وصف واستنباط من الداخل لوقائع وأحداث تاريخية كان فيها مشاركًا وشاهدًا، يقتضي منا طرح عدد من الأسئلة ستكون بمثابة نبراس نهتدي على ضوئه لاستخراج المبررات والحجج التي استعملها المؤلف لتبرير التدخل الفرنسي بالمغرب، ونرى كيف تقاطع هذا النص مع نصوص أخرى، انطلقت من وقائع تاريخية لتؤسس لخطاب يبرر الهيمنة السياسية والاقتصادية والثقافية على الشرق.

ويمكن أن نصيغ هذه الأسئلة على الشكل التالي: ما مدى انعكاس هيمنة أنا المستعمر/الصوت الواحد على نقل الوقائع وتمثلها من طرف المؤلف؟ وما مدى تفاعل هذا الأخير مع سياقه التاريخي والثقافي؟ هل حجب عنه رؤية الآخر رؤية موضوعية بنظرة إنسانية متفهمة؟ هل استطاع تجاوز الصورة النمطية للإنسان المغربي/ الأهلي؟ تلك الصورة التي ألغت إنسانية هذا الأخير، هل كان هويل يرسم لوحة واقعية، من موقعه كمشاهد ومراقب، للمغرب؟ أم كان يصف لنا صورة مستمدة من تمثلات الغربيين حول الشرق، صورة رسخت في ذهنه عن وعي أو غير وعي من خلال قراءاته عن الشرق/المغرب. وختاما يمكن أن نتساءل عن مدى نجاح هويل في التعبير كممثل للمؤسسة الإعلامية الفرنسية عن مطامح القوى الرأسمالية الكبرى المهيمنة وقتئذ في السيطرة على اقتصاديات المجتمعات البدائية/ المتخلفة.

أولاً: الاستشراق الجنسي

يقدم هويل المغرب في صورة مكان للشبق الجنسي المشوب بالعنف والسيطرة، فحين اشتد الحرمان الجنسي بأنصار المولى عبد الحفيظ، الذي انشق عن أخيه السلطان المولى عبد العزيز ودخل في صراع معه حول العرش، وهم في رحلتهم انطلاقا من مراكش نحو العاصمة فاس، ولأنه لم يكن مسموحًا لأحد باصطحاب نسائه سوى السلطان، فقد ارتأى أحد قادة الرحى المتزوج حديثًا استدعاء زوجته للالتحاق بمحلة السلطان قادمة من مدينة مراكش، ولم تكن المحلة قد ابتعدت عن المدينة لتعسكر ببلدة لا تبعد سوى بأقل من كيلومتر واحد، وكان الرجل قد أعد لاستقبالها خيمة صغيرة، محكمة الإغلاق، ألحقها بخيمته الرسمية، وكان يبدو عليها مظاهر الجدة، مما يعني أنها لم تستعمل من قبل.[3]

هذه الخيمة الصغيرة الأنيقة التي عدت لمطارحة الغرام الحلال بين الزوج وزوجته لمدة يومين أو ثلاثة، أي خلال المدة الزمنية المرجح للمحلة أن تقضيها في محطتها الأولى هذه قبل أن تنطلق في رحلتها نحو العاصمة فاس، كانت وراء اكتشاف هويل لفجور جنسي، وذلك حين عبر قايد الرحى لهويل عن مخاوفه من تعرض عروسه الشابة لمخاطر الطريق حين استبطأ مجيئها، وأمام تنامي قلقه عليها و إبدائه التوجس من تعرضها لمكروه ما أثناء الرحلة، وإسراره لهويل بمخاوفه، ومع ظهورها في اليوم الرابع، سعى هذا الأخير إلى استخدام حسه الاستخباراتي، واستغلال قربه من الدائرة العُليا المقربة من المولى عبد الحفيظ لاستجلاء الحقيقة ومعرفة ما تعرضت له الزوجة الشابة خلال الثلاثة أيام الماضية، فعلم بتعرضها، عند وصولها للمحلة، للاحتجاز من طرف الباشا المدني الكلاوي بخيمته لمدة ثلاث ليال، من أجل إشباع نهمه وحرمانه الجنسي، ثم بعد ذلك أطلق سراحها لتلتحق بزوجها.

يعطي هويل تفسيرًا لهذه الظاهرة، بإيجاد تماثل لها في ثقافته الغربية، في كون القياد والباشوات باعتبارهم حكاما فيوداليين فإن لهم "حق التفخيد"، وللأسف لم يحدثنا هويل عن موقف الزوج المغبون من الحادث، وهل علم أصلا بالأسباب الحقيقية لتأخر زوجته، والملاحظ أن هويل لم يبد اهتماما بذلك لأنه كان يرى في المغرب فضاء لممارسة الفجور الجنسي، فقد أشار قبل تطرقه للحادثة المشار إليها هاهنا إلى جود مجموعة من التجار وأخرى من المومسات تسير خلف محلة المولى عبد الحفيظ هدفها إشباع الرغبات المحرمة، ولم يكن يغشى هذه الأماكن المشبوهة سوى صغار الجند في الوقت الذي اعتبر التردد عليها وصمة عار وتلطيخا للشرف في حق كبار الشخصيات، وربما كان هذا هو الدافع الذي جعل الكلاوي المدني يقبل على فعلته الشنيعة للتنفيس عن رغباته المكبوتة وعن حرمانه الجنسي.

ينجح الكاتب هنا في دمج تمثلين للغرب عن الشرق والقرن بينهما ممثلين في الاستبداد/ القهر والشهوانية، كما ساهمت الحادثة في انطلاق غريزة الهتك لدى الكاتب، فالخيمة الصغيرة

الأنيقة المحكمة الإغلاق، التي كانت بمثابة حريم مصغر، مثلت دافعا رئيسيا لهويل في الجري وراء تفاصيل الحدث لهتك أسراره وفضحها، لنجد أنفسنا أمام حالة من حالات السعار الجنسي الملتهب، التي اندلعت حرائقها بجسم الباشا بنفس القدر إن لم نقل أكثر في مخيلة الكاتب المتلصصة لأنه "كلما زاد الحجاب سماكة ازدادت الرغبة في التلصص والهتك وانطلقت المخيلة من عنانها أكثر فأكثر"[٤] فقد استرعت اهتمامه المرأة المصونة أكثر مما استرعته المرأة/المومس المستباحة العرض التي كانت تضج بها مؤخرة المحلة "كان هناك بالفعل في المعسكر مجموعة من البغايا المختلطات بالتجار الذين كانوا يتبعوننا"[٥] لأنه ببساطة كان يبحث في الشرق، الذي هو ها هنا المغرب الأقصى، عن اللذة المقرونة بخرق المحظورات أي عن الرغبة الآثمة، كما كان يبحث عن نموذج المرأة كما في المتخيل الغربي، أي تلك المرأة التي تنوس بين الرغبة والشفقة[٦]، الشرقية/المغربية المضطهدة التي يتعامل معها الرجل الشرقي كأداة جنسية لتلبية رغباته المكبوتة، دونما اعتبار لمشاعرها.

حاول هويل بلغة مجازية بليغة في تلميحات رمزية أن ينقل للقارئ صورة من صور القهر الجسدي الممارس على الأنثى، من خلال وصفه للخيمة الصغيرة المحكمة الإغلاق الملحقة بخيمة قايد الرحى، الأمر الذي أثار استغرابه وتساؤلاته، فجاءه الجواب في غير مواربة بأنه يريد استقبال عروسه الشابة ليطارحها الغرام مدة إقامة المحلة بهذه المحطة الأولى القريبة من مدينة مراكش، لتعود المرأة أدراجها إلى نفس المدينة عند انطلاق المحلة، فهذا الحريم المصغر الممتنع عن الأعين المتلصصة، رآه الكاتب كنوع من أنواع القهر للجسد الأنثوي، ثم انطلق بعد ذلك يبحث عن قهر آخر سوف يمارس على الفتاة، قهر جنسي مرفوق بالاحتجاز سيمارسه الباشا، والذي لم يثر استغرابه إلا قليلا مادام قد وجد له مسوغا استنادا على ثقافته الغربية باعتباره حقا من حقوق الباشا، الذي تتيحه له القوانين والأعراف الفيودالية باسم "حق التفخيد"[٧].

ولأنه في المجتمعات الشرقية كلما ارتفعت مكانة الرجل الاجتماعية كلما ضربت حراسة مشددة على نسائه[٨]، وبالتالي على حياته الجنسية، كان اللجوء إلى التلصص السبيل الوحيد أمام الكاتب للاطلاع على الحياة الجنسية لعلية القوم، هذا إضافة إلى إطلاق العنان لمخيلته. هكذا نجده يستغل رفع الكلفة بينه وبين السلطان أثناء لعبهما للشطرنج ليعبر للسلطان عن تأففه من شرب الحليب الرائب الذي لا يوجد غيره بالمحلة، وعن رغبته في الحصول على حليب طازج. فما كان من هذا الأخير، في بادرة لطيفة منه، إلا أن أرسل إليه جرة من الحليب الطازج عن طريق مرضعته الزنجية المسنة، التي أذهلت الكاتب ببنيانها القوي الذي لم تنل منه السنون، ثم عاودت الزيارة على غير علم من سيدها حاملة معها جرارا أخرى من الحليب مدفوعة بفضول خفي لمعرفة كيف يمارس الروم حياتهم الجنسية، وموكلة للحصول على إجابات عن الأسئلة التي كانت تطرحها نساء الحريم المتنقل فيما بينهن. فأولئك النسوة كن على علم بالزيارات التي كان يقوم بها النصراني للسلطان، مما أثار لديهن عددا من الأسئلة: من يكون هذا المسيحي؟ كيف هو؟ أ لديه زوجة؟ هذه الأسئلة التي كانت تطرحها أولائك النسوة المعزولات عن العالم الخارجي سوف يجدن الإجابة عنها عن طريق المرضعة، التي قدمها الكاتب للقارئ في صورة المرأة الشرقية المتهتكة الخليعة، فقد طرحت سؤالها في وقاحة نادرة، دون أن يرف لها جفن، "أرادت أن تعرف تماما كيف يمارس الروم الحب، وعند طرحها لهذا السؤال تألقت في عينيها نظرة ماجنة، وقد شرحت لها كيف يمكنني فعل ذلك"[٩] وستكون هذه المرأة "المرحة"[١٠]، المهووسة بالجنس، العين المتلصصة للكاتب على حريم السلطان، وفاشية أسراره، فعن طريقها سينكشف اللغز الغامض للحريم السلطاني أمامه باطلاعه على بعض أسراره، فعلم أن للسلطان الحق في الارتباط بأربع نساء وفق الشرع الإسلامي، كما جميع المسلمين، لكن عدد محظياته/سراريه فهو غير محدد، إذ كان السلطان يتلقى مرارا هدايا من نوع خاص كانت عبارة عن عذارى، ومع الزمن كان يمتلئ البلاط ويفيض بعددهن، ويقال أن عدد جواري المولى عبد العزيز يصل إلى ثمان مئة جارية، لأن كل من دخلت الحريم لا يمكنها الخروج منه أبدا.

هذا الجمع من الفتيات كان يخضع لقوانين صارمة، تسهر على مراقبة التزامهن بها رئيسات/ قايدات وعريفات، وكان العمل اليدوي ممنوعا كليا على الزوجات، لأنهن كن ملزمات بأخذ زينتهن يوميا، وأن يكن مستعدات في أية لحظة لتلبية رغبات السلطان. ولم يكن مسموحا لأنواع من الخضر باجتياز أبواب الحريم كالجزر واللفت، كما كان يتم إحصاء وعد الشموع مخافة تعرض بعضها للإخفاء/ السرقة، وكذلك كانت علاقة الصداقة بينهن تخضع لمراقبة مشددة، خاصة تلك التي قد تثير الشبهات، وحتى الرغبة في الانعزال والتوحد لم تسلم من المراقبة اللصيقة، إضافة إلى هذا الإرهاب النفسي الممارس على المرأة داخل الحريم السلطاني بانتهاك خصوصيتها، مخافة ممارستها للاستمتاع الذاتي/ العادة السرية أو السحاق

المحرمان دينيًا، فقد كانت تمارس عليها أشد أنواع التعذيب الجسدي في حالة خرقها للقوانين المنظمة للحريم بجلدها بالسياط أو قرعها بالعصا. كانت القاعدة تقتضي بأن يكون لكل زوجة من الزوجات الشرعيات يوما تستقبل فيه السلطان، وكان هذا الأخير ملزمًا بها، وليس في استطاعته خرقها، أو تغيير التسلسل الدوري لبرنامج الزيارات لكل واحدة، على الأقل على المستوى النظري. وفي اللحظة السعيدة تقود اثنتان من رئيسات/ قائدات الحريم الزوجة صاحبة الدور إلى "سيدنا"[11]، يقفن بثلاثتهن على بعد أربع خطوات منه، ثم ينحنين أمامه، ويحيينه بالتحية المعهودة: "الله يبارك في عمر سيدي"، بعدها يشير السلطان على الزوجة بالاقتراب، وباستقباله لها يكون قد أدى ما عليه من واجبات، وفي حالة ما لم يكن له مزاج في معاشرة زوجته الشرعية، فإنه كان في هذه الحالة يتسلل إلى مخادع إحدى الجواري.

ظل الكاتب أسير النظرة الاستشراقية التي تكونت عن المرأة الشرقية في المخيلة الأوروبية باعتبارها سجينة داخل الحريم، ضحية التقاليد والأعراف الدينية المتزمتة، لذلك سعى إلى اختراق خصوصياتها/سرها المقدس برفع الحجاب عنها وجعلها في متناول عين ويد الأوروبي المقتحم لحصنها، وهو ما يفسر لنا وقوفه كثيرا عند الخيمة الصغيرة المحكمة الإغلاق/الحريم، وتلصصه على حريم السلطان، وعدم اهتمامه بالمومسات المستباحات المتواجدات بنفس المعسكر/ المخيم/ المحلة.

والملاحظ فيما يتعلق بالجنس عند هويل أنه قاربه من منظور استشراقي محض، فجعل من المغرب جنته الجنسية، فحين وجهت جريدة لوماتان هويل من طنجة نحو الرباط، حيث استقر المولى عبد العزيز، بعد عزله من طرف أخيه، من أجل إجراء مقابلة معه، تعرف هويل على عدد من مواطنيه القاطنين بها، وكان من بين هؤلاء صديقًا اسمه بيارناي[12] الذي يصفه بأنه لا يضاهيه أحد في معرفته بخبايا الثقافة البربرية، فقد كان يعرف كل اللهجات المنتشرة ببلاد البربر من الريف إلى الأطلس. جال كل المناطق البربرية، وقضى أشهرا تحت أسقف المنازل الطينية، من أجل تبين الفروق بين اللهجات البربرية. ومن خلال حديثه عن صديقه سنكتشف طغيان الرؤية الاستشراقية في كتاب هويل، ومدى عجز هذا الأخير عن التحرر من إسارها، يكتب واصفا طبيعة الحياة التي يحياها بيارناي بالرباط "كان يقيم بمنزل قريب من مقبرة ولعلو بمنزل مغربي يتكون من غرف طويلة ضيقة مزينة بسجاجيد ومزدحمة بأواني نحاسية وبقطع من الصوان. كان يأوي داخل منزله فتيات بربريات جئن من مختلف الجهات، وبذلك كان يواصل أبحاثه مازجا النافع بالممتع. كان لهن جميعًا نفس البشرة القاتمة إلا أنهن كن يتميزن عن بعضهن البعض بأوشامهن وشكل الأنف وبياضاوية الوجه. لم أتوقف عن –إبداء-الإعجاب بواحدة منهن تنحدر من واويزغت[13] كانت بعنين واسعتين، وبثغر تفتر ابتسامته عن در نضيد من اللؤلؤ، وببشرة ذهبية، وكأنها خرجت لتوها من الفرن. في إحدى الأمسيات عند عودتي إلى غرفتي وجدتها القرفصاء أمام الباب. تأثرت بإعجابي بها/ أدركت إعجابي بها، فجاءت إليّ .... يا جنة المغرب العتيق الضائعة إلى الأبد"[14].

إن هذا النص صريح لا يحتاج تفسيرًا، فهذا الباحث الفرنسي صنع لنفسه حريما خاصا به، في تحد متغطرس لتقاليد وأعراف البلد، واتخذ من هؤلاء النسوة البائسات، التي لا يحدثنا الكاتب عن طبيعة الأقدار التي رمت بهن بين أيدي صاحبه، موضوعا لبحثه، وفي نفس الوقت كان يستعملهن لمتعه الخاصة. ولكن ما يهمنا هنا هو هذا التصور النمطي للشرق كأنثى خاضعة تمنح جسدها طواعية للذكر الغربي ليمارس عليها فحولته المخصبة، ولأن الشرق هنا هو المغرب فقد اختار أنثى بربرية لا عربية، في إحالة منه إلى التصور الاستعماري السائد عن المغرب بكونه أرضًا بربرية خضعت لسيطرة عدد من الحضارات كان آخرها الحضارة العربية الإسلامية، التي تصفها الأدبيات الاستعمارية الغربية بكونها حضارة عقيم أسدلت أستار الظلام والخمول على هذه البلاد، وأنه قد آن الأوان لتتسلم الحضارة الغربية المخصبة المشعل للسيطرة عليها، ويبلور الكاتب هذه الفكرة ذات الدلالة الاستعمارية بحديثه عن ضمور الفحولة الجنسية لدى رجال الطبقة الحاكمة، البالغين من الكبر عتيا، والمفتونين بوطء الصغيرات، فكانوا من أجل استرجاع فحولتهم الذابلة، يتعاطون المنشطات الجنسية[15].

فالمنظور الاستشراقي المحض الذي أشرنا إليه من قبل، تجلى في كون هويل لم يكتفي بمعايشة الشرق الواقعي، الذي حين لم يلبي حاجاته الجنسية، عمد إلى بعث الشرق الأسطوري من رماد قراءاته، عندما وجد ضالته عند صديقه المتخصص في دراسة اللهجات البربرية، جاعلاً من نفسه بطلاً لمغامرة جنسية متكاملة الأركان، إذ لم يكتفي كمن سبقه بذكر وقوعه ضحية إغراء جنسي ما، كما حدث لإدموند دوتي حين راودته عن نفسه الحسناوات اليهوديات، اللواتي افتقدن فضيلة الحياء الذي يصبح الجمال بدونه بلا معنى[16]، أو بعرض جانب من مطارداته غير المثمرة كتلك التي كانت لبيير لوتي بأزقة وحواري فاس[17].

فمع هويل نجد أنفسنا أمام عملية جنسية كاملة بكل ما تعنيه من اختراق جسدي ناجح يؤديه جسد مقتحم على جسد خاضع ذليل مستكين، ويصور هويل استكانة المرأة الأهلية في صورة الكائن الخاضع حين وجدها وقد أقعت عند باب غرفته ككلبة متوددة، تعكس عيناها عرفانا وامتنانا لما رأته في نظراته من إعجاب بجسدها البهي. والواقع أن هذه الصورة ما هي إلا ثمرة مخيلة مريضة باستيهامات جنسية، غالبًا ما نجد لها نظائر في كتب الرحلات الغربية حول الشرق، فهي لا تصمد أمام الاختبار، فكيف لفتاة بربرية جاءت أو جيء بها من أعماق الأطلس، إلى مدينة الرباط، أن تقدم نفسها بكل هذه السهولة، فتتسلل من مخدعها لتنتظر الكاتب عند باب غرفته، استجابة فقط لنظرات نهمة محمومة التهم بها الكاتب جسدها الطري. كيف نصدق أن فتاة غرة مكبلة بتقاليد القبيلة، وبثقافة العار والشرف، أن تقدم نفسها بكل هذه السهولة فقط بسبب نظرة لا كلمة. وإذا دفعنا جدلاً بصحة الرواية، فالأكيد أنها دفعت إلى ذلك دفعًا من طرف مضيفه وآويها، حين قرأ في عيني صديقه رغبة محمومة في افتراسها جنسيًا. إنه تمسك بالشرق المتخيل ليس إلا، وفي نفس الوقت إيماءة من الكاتب أن العمل الفرنسي قد اكتمل بالمغرب، وأتى ثمرته أخيرًا، ولم يعد مجرد مطاردات يائسة لا مجدية، كتلك التي عاشها من سبقه من الفرنسيين.

إذا كانت هذه الرؤية الاستشراقية، لدى الكاتب قد وجدت ما يعضدها في الواقع، إلا أنه بالغ في تضخيم الصورة الجنسية إلى حد غير معقول، فاشتعلت مخيلته بالخيالات الجنسية المحمومة المشبعة بقراءاته الاستشراقية، فلم ينسى حتى وهو في خضم المحنة التي أودت ببعض بني عرقه، وهو يجوس خلال جثث الأهالي/ المغاربة المتفسخة إلى التذكير بإحدى أهم سمات الشعوب الشرقية كما في المتخيل الغربي ممثلة في الغلمة والشبق الجنسي، فقدم صورة تشمئز منها النفوس السليمة، حين صور الأهلي ككائن تستبد به الشهوة حتى في موته "كانت الجثث، المتفسخة تحت الشمس، ثلاث أرباعها عارية، منتفخة بشكل فظيع، منتصبة الأعضاء الذكرية في استثارة جنسية وحشية"[١٨]، والحقيقة أن انشغال هويل بالقضايا السياسية جعله لا يذهب بعيدا في البحث عن طبيعة الحياة الجنسية للمغاربة، على عكس الكتاب الفرنسيين الآخرين الذين ولغوا في الحياة الجنسية للمغاربة، خاصة المترفين منهم[١٩]، تلبية للنزوع الاستشراقي، فرسمت أجواء معطرة بالشبق الجنسي لعالم مغربي مشابه لعوالم ألف ليلة وليلة، ولم تكتفي بذلك بل تحدثت عما يشبه الفجور الجنسي لدى الرموز الدينية، وإن برأت تعاليم محمد، حين تحدثت عن الممارسات الشاذة لرموز التدين الشعبي[٢٠]، والدليل في ذلك أنه لم يخصص لها سوى مقاطع قصيرة، وإن كانت مشبعة دلاليا، على عكس كتاب آخرين خصوها بمقاطع طويلة كمثل بيير لوتي، الذي تميز وصفه للنساء بحسية بالغة، فرسم الاستدارات والتكوينات البديعة للجسد الأنثوي المغربي، الذي رآه جديرا بالرسم و النحت[٢١]، أو حتى بفصول مفردة متكاملة كالإخوة طارو.

ثانيًا: أطروحة الاستبداد الشرقي

تتداخل وتمتزج الصور والرؤى الاستشراقية في كتاب هويل، فمن الصور الإباحية التي لم تقع على أي حال في الابتذال، إلى صور الفوضى والبؤس والطغيان السياسي بشراسته المعهودة، التي سيقع الكاتب نفسه ضحية له حين يجبر على الركوع أمام المولى عبد الحفيظ، المنشق عن أخيه السلطان الشرعي والطامح إلى تولي العرش بدله، وفي صورة يمتزج فيها الاستبداد بالغرائبية ينقل الكاتب تفاصيل أول لقاء رسمي له مع المولى عبد الحفيظ "حينما أذن دوري تقدم نحوي رئيس المراسيم، الذي كان يضع عمامة على رأسه، يخرج منها طربوش مدبب، مرتديًا فستانًا أبيض كبيرًا، مشدود الخصر بحزام أحمر، وهو يحمل سيفه ذا المقبض المصنوع من قرن الكركدن"[٢٢].

يوحي النص وكأنه إحدى المرويات السردية القديمة، فأجواء ألف ليلة وليلة حاضرة بثقلها في المشهد، معها نشعر وكأننا أمام سيافها وقد خرج لتوه من النص العربي، ليمارس شراسته على الكاتب "أمسك كتفي بقوة، وقادني نحو المولى عبد الحفيظ"[٢٣]، ويجبره على أداء مراسيم أقل ما يقال عنها أنها حاطة للكرامة، مزرية بقيمة الإنسان. معها تتحول القيم المتخيلة للغرب عن الشرق إلى قيم ملموسة، ومعها نلمس انكسار الكاتب وهو يؤدي طقوسا شرقية بدائية "على بعد عشر خطوات، توقف وأجبرني على الانحناء لثلاث مرات مناديا بصوت عال الصيغة التقليدية: الله يبارك في عمر سيدي"[٢٤]، وباقترابه من المولى عبد الحفيظ، بعد إشارة من هذا الأخير، نكتشف صورة لا تختلف عن المشاهد التي دأب الاستشراق الغربي على رسمها للمستبد الشرقي المحاط بالوسائد الوتيرة، الحالم النظرات، المنتشي بأحلام الاشتهاء الجنسي والسلطة "متربعا على سجادة سميكة، متكئا على وسائد من كل الألوان، غامق السمرة مقارنة مع أخيه المولى عبد العزيز، شديد سواد اللحية، تبدو عيناه ذات النظرات المعبرة الحانية وكأن بهما حولاً خفيفًا"[٢٥]، ويبقى الاختلاف هنا هو أنه عوض وجود الجارية الحسناء المستعدة لتلبية رغبة سيدها الجسدية، نجد عوضا عنها

هذا الرجل الفرنسي المرتعش الخائف، النائي بنفسه على أن يكون البادئ باختراق حاجز الصمت الذي ران على المكان، وكأن القوم على رؤوسهم الطير "جلست أمامه على ساقين متصالبتين، منتظرًا منه خرق حاجز الصمت أولاً"[٢٦]، وبانتهاء المقابلة يبدي الكاتب حماسه لتلبية رغبات السلطان في تعزيز سلطته على حساب سلطة أخيه "السلطان الشرعي".

يُصر الكاتب على الذهاب إلى أبعد مدى في استحضار أجواء ألف ليلة وليلة عند الحديث عن توصله بهدية السلطان التي كانت عبارة عن كيس صغير من الدورو، وبإبدائه الحيرة أمام هكذا موقف، يحذره اليهودي يعقوب حزان الحامل للهدية من مغبة رفضها، وبتعليق الكاتب على الحدث بالقول: "لكل بلد عاداته الحضارية"[٢٧] يذكرنا بالشرق الأسطوري كما في المخيلة الغربية، شرق الأساطير والمعجزات والكنوز المتدفقة بغير حساب، لذلك فهو يستحق المغامرة الفردية كما المغامرة الاستعمارية. والملاحظ أن الكاتب هنا بقبوله الدخول والمشاركة في المغامرة السياسية الحفيظية، وخدمة المطامح السلطوية للسلطان، قد جعل من نفسه المعادل الموضوعي للجارية الحسناء التي هي دوما طوع بنان المستبد الشرقي لتلبية رغباته الجنسية. وبهذا التماهي بين الكاتب/المانح للسلطة والجارية/ المانحة للجنس، ندرك مدى تشبع هويل بأساطير الشرق، وعدم قدرته على الانفلات من إسار النظرة الاستشراقية إلى الدرجة التي رأى في المغرب شرقًا سرمديًا لطقوس الأبهة الملوكية، التي اندثرت من الشرق مهدها الأصيل، فقدم السلطان في صورة شبه سماوية "هادئا تحت مظلة حمراء يحملها عبد، وكأن على رأسه الطير، على مسافة ذراع. تشع قداسة شبه سماوية من شخصه، ومن هذه الأبهة التي عفا عليها الزمن، إنها آخر ذكرى للطقوس الفخمة للشرق"[٢٨].

وتبلغ النزعة الاستشراقية عند هويل ذروتها في تصوير مظاهر الاستبداد الشرقي في تقديمه للسلطان المولى عبد الحفيظ كولي محارب حيث تتجاور القداسة والعنف، وتتوزع مشاعر الحضور وتتمزق بين الانبهار والرعب حين وصفه للصلاة الجماعية، التي حضرها السلطان بالكتبية قبيل انطلاقه نحو فاس، التي لا معنى لقيامه ضد أخيه دون الاستيلاء عليها، في مشهد متلصص "آوينا إلى خيمة أحد التجار بمكان يمكننا أن نرى منه دون أن نرى"[٢٩]، ومن هناك راقب الحركة الدائبة للحشود المتدفقة على ساحة جامع الفنا من كل القبائل المجاورة: الشلوح ببرانسهم السود، الرجال الزرق "أهل الصحراء"، الحضريون بملابسهم البيضاء، المزارعون بمعاطف نسلت ألوانها من أثر الأشغال الفلاحية، وبعددهم البالغ خمسة آلاف رجل، خمسة ألف روح مؤمنة بالله الواحد ورسوله كانت في انتظار السلطان لأداء الصلاة، الذي سرعان ما "ظهر ممتطيًا فرسه تحت مظلته الحمراء الضخمة، محاطا بفرسانه الزنوج. ثم ارتفع صوت من أعلى صومعة الكتبية مناديًا: الله أكبر"[٣٠].

يتجاور في قطعة واحدة الديني بالدنيوي، المقدس بالمدنس، فمن وصف لمظاهر كسروية وثنية، دخيلة على الثقافة الإسلامية، تقدم الحاكم كنصف إله، إلى وصف لمظاهر روحية خاشعة، تحولت فيها أجساد هذا الحشد البشري الضخم إلى كتلة واحدة متراصة مولية وجهها قبل المشرق، كأنها جسد واحد في ركوعها وقيامها وسجودها. مشهد أخذ بلب الكاتب، شعر معه لما رأى من انخطاف روحي عميق يستولي على جموع المصلين، بالخزي والعار ألا يكون بينهم ليعفر جبينه بالتراب مثلهم.

يقدم لنا هويل، إضافة إلى صورة استغلال المستبد الشرقي للدين لفرض سطوته على الشعب، وصناعة أيقونته الخاصة به كنصف إله، صورة أخرى للحاكم الشرقي، كما في المتخيل الغربي، إنها صورة الحاكم اللاهي المنغمس في الشهوة المائعة، نظرًا لكثرة لذاذاته، فالمولى عبد الحفيظ لم يمنعه انشغاله السياسي الحاد حتى في وقت تكالبت فيه الأمم على المغرب، وأطلت الفتن برؤوسها في كل ربوعه، وكثر فيه الهرج والمرج، وتهددت الدولة بالتمزق والتلاشي، من ممارسة هواياته المفضلة كالاستماع لموسيقى يؤديها موسيقيون زنوج، يرافقونه في حله وترحاله "كان الموسيقيون جميعهم من أجمل الرجال السود، بملابس حمراء، معصبي الرؤوس بعمامة كبيرة"[٣١] أو لعب الشطرنج مع الندماء من خاصته، الذين لم يكونوا يجرؤون على تحقيق الفوز عليه، اجتنابا لسخطه، وهي القاعدة التي خرقها هويل وعلق عليها بقول وجهه للسلطان: "عندما نلعب نحن الاثنان الشطرنج فأنت لم تعدّ سلطانًا"[٣٢] أو الخروج إلى الأحراش للصيد بالصقور أو بالسلوقي[٣٣].

وفي حضرة اللهو والمجون، يتخلى المستبد الشرقي عن قسوته المعهودة، ويتحول إلى إنسان غاية في اللطف والطيبوبة، وتستنفد قواه في الاغتراف من المتع، خاصةً المستجد منها، وتصبح لديه قابلية الأخذ بيد شعبه على طريق التحديث/ التغريب، فالمولى عبد العزيز يصرح لهويل في أسى، ونفسه ممتلئة بالطمأنينة، مستسلمًا لمصيره، غير حاقد أو ضاغن على أخيه المولى عبد الحفيظ "أردت أن أقود بلدي على

طريق التقدم، لكن أخي قاده على طريق التمرد"[٣٤]، ويتخذ هويل من وصف هيئة المولى عبد العزيز فرصة للتذكير بصورة المستبد الشرقي، كما في المتخيل الغربي، صورة الحاكم البدين، المتراخي، المنتشي بالأحلام "شاحبًا، ممتلئًا قليلاً، شبه أصلع، ذا جفون غليظة تحجب نظراته"[٣٥]، متهالكًا على الملذات حد الإسراف والتبذير مما أدى إلى إفلاس الخزينة، وعدم القدرة على سداد أجور الجند، وإغراق البلد في القروض الأجنبية، التي كانت نتيجتها أن فقدت الدولة سيادتها، وأصبحت رهينة بيد المقترضين[٣٦].

ثالثًا: أطروحة الفوضى

لم يختلف كتاب هويل في شيء عن الكتابات الفرنسية الأخرى حين تحدثت عن مغرب ما قبل الاستعمار، في تناولها لإحدى أهم ركائز الخطاب الاستشراقي ممثلة في سيادة الفوضى مما يعني، وفق الخطاب الكولونيالي/ الاستشراقي، غياب جهاز الدولة بالمعنى المتعارف عليه، المتولد عنها بروز مظاهر عنيفة، ولأن الفوضى كانت إحدى أهم مسوغات الاستحواذ الاستعماري على الشرق، فقد أسهبت في رسم صور لمظاهر عنف سادي مارسه الأهالي على بعضهم البعض أو مارسه السلطان على رعاياه، والذي بلغ للحقيقة التاريخية مبلغا، يدفعنا إلى القول أن السماح للأجانب، من الصحفيين والرحالة والكتاب، بمرافقة السلطان في حركاته/ حملاته العسكرية لتأديب المتمردين وتثبيت السلطة وفرض الاستقرار بربوع المغرب ضمانا لوحدته، خطأ فادحا لأنه جعل هؤلاء الأجانب يطلعون عن كثب على حدة تمادي جيش السلطان في القمع والتنكيل، وتزداد هذه الصورة الاستشراقية قتامة حين ينزاح فيها العنف من عنف مشروع إلى عنف سادي تحركه الضغائن والأحقاد المتوارثة بين القبائل لأسباب عرقية أو لأسباب اقتصادية مرجعها الصراع حول مجال الرعي، أو لطموحات توسعية للزعماء المحليين.

هذه الصورة الأخيرة هي التي قدمها هويل لممارسات تقوم بها السلطة لا تختلف في شيء عن ممارسات قطاع الطرق من نهب وسلب وسبي. فعند مرور المحلة السلطانية بالقرب من الفضاء المجالي لقبيلة السراغنة العربية، تذكر الباشا الكلاوي المدني زعيم الشلوح بالأطلس الكبير أحقاده المتواترة لهذه القبيلة المتاخمة لقبيلة كلاوة البربرية، وكانت المواجهات والانفجارات لا تتوقف بينهما إلا لهدن قصيرة شديدة العطب لم تكن في الأخير سوى مدد لاسترجاع الأنفاس من أجل مواصلة الاقتتال الداخلي.

وبسبب هذه الأحقاد والثارات القبلية بين كلاوة والسراغنة، رفضت هذه الأخيرة الاعتراف بالمولى عبد الحفيظ سلطانا على المغرب بدل أخيه المولى عبد العزيز، فكانت تلك حجة اتخذها الكلاوي المدني للغارة على السراغنة بمعية جنده، وكانت كلماته عن هذا الحادث تدل على تأكيده الطابع الإثني لهذا الصراع، ودليلا على استغلال أدوات الدولة في تحقيق الزعماء المحليين لمآربهم الشخصية "كان حي كلاوة فارغًا من فرسانه وجنده"[٣٧]، كما كان فرصة للتذكير بالاحتلال الروماني للمنطقة من خلال القراءة المتعسفة للمعجم اللغوي السائد بدفعه لفرضية التأثير اللغوي الروماني بالمنطقة من خلال بحثه عن الأصل اللساني لكلمة "هوك" التي هي ببساطة ليست سوى تحوير للفظة العربية "هناك" والتي تحمل نفس المعنى في دلالتها على الاتجاه. فحين تساءل الكاتب عن خلو الحي المخصص لكلاوة من الجند، أجابه الجند المكلفون بالحراسة بأنهم قد اتجهوا "هوك" مشيرين بأيديهم نحو الشرق. فهذا التذكير بالوجود الروماني القديم بأرض المغرب لم يأت اعتباطا، والدليل في ذلك هذا التعسف في التفسير اللغوي لجذر كلمة "هوك" التي اتخذ منها مدخلا للتذكير بالاحتلال الروماني، ثم أردفها بالتعبير عن حسرته من تضييعه لفرصة نادرة قلما يجود بها الزمن، والتي هي حلم كل صحفي في معايشة مشاهد الاقتتال القبلي عن قرب، ولم يخف رغبة رئيس الأخبار بجريدة لوماتان وتشوقه وانتظاره منه الكتابة عن المثير والغريب والخارق للعادة.

إن هذا الإعلان الصريح يعبر عن سطوة الإسار الاستشراقي على الكاتب، فقد تدفقت الرؤى الاستشراقية والتحمت مع بعضها البعض وجاءت في صورة موجات متتالية في أسطر معدودة متقاربة، ملتحمة مترابطة، وإن طغى على استحضارها التعسف أحيانا، فقد أشار إلى بعض بقايا الوجود الروماني على المستوى اللغوي، في ارتداد زمني سحيق، ثم عاد بنا بسرعة للحديث عن الاقتتال القبلي وما يعنيه من فوضى ومن غياب لجهاز الدولة، والتي يظل حضورها إن هي حضرت حضورًا قمعيًا شرسًا وطفيليًا، ولم يكن ذلك منه سوى لتبرير الوجود الفرنسي الطارئ على المنطقة والساعي إلى استعادة الأمجاد الرومانية، ونلمس من خلال هذه المقاربة المختزلة للواقع المغربي صورة لما انعكس في مرايا الاستشراق الفرنسي[٣٨]. فالمغاربة المتطاحنون قمة وقاعدة على السلطة والثروة، المتشاكسون فيما بينهم، في حاجة اليوم إلى السيد الأبيض كما احتاجوه بالأمس، وهي الأطروحة التي يقوم عليها الكتاب/الرحلة، فالكاتب يلح في كل وقت وحين على خوضه هذه

المغامرة السياسية باسم مساعدة المولى عبد الحفيظ من أجل مصلحة المغرب والمغاربة، وينفي عن نفسه أية صفة رسمية، مما جعله أحيانا في صدام مع العسكريين الفرنسيين، وموضع ريبة من طرفهم، بل ذهب البعض منهم إلى اتهامه بالخيانة والعمالة للعدو، مما عرض حياته للخطر.

والحديث عن الفوضى يجرنا للحديث عن الفوضوي، فما هي الصورة التي يقدمها هويل عن المغربي الذي يحمله مسؤولية الفوضى في تجاهل تام للضغوط الخارجية ولما استتبعها من مظالم، وللتفقير المولد للثورة/ الفوضى على السلطة الذي أنتجته الإصلاحات التي باشرها المولى عبد العزيز بإيعاز من القوى الأجنبية من أجل أداء الديون التي كبلت بها تلك القوى المخزن العزيزي. فالكاتب يتجاهل كل تلك الحقائق ويحمل حالة الفوضى التي يعيشها المجتمع لغرائز الأهلي المتعطشة للنهب والسلب، يقول متحدثا عن قايد الرحى "تتدلى أكياس من كتفيه مليئة بما سرق من حلي ودورو"[٣٩] الغنائم التي حصلها بعد مشاركته في غارة صباحية قام بها القايد المدني الكلاوي ورجاله.

يتخذ هويل من الحادثة فرصة لترويج الأطروحة الاستشراقية القائلة بأن المغاربة مجرد شتات يفتقدون رابط الأمة، لتفسير اقتتال داخلي قد تعرفه أية أمة مهما بلغت من الرقي، ولم ينتبه إلى أن الصراع بين السراغنة وكلاوة هو صراع اقتصادي بالدرجة الأولى وليس سياسيا، ونحن هنا أمام صراع حول العرش ولسنا أمام تفكك للسلطة كما هو الحال في المجتمعات الفيودالية التي عرفها التاريخ الأوروبي[٤٠]. فالسلطان المغربي مارس سلطة مركزية قوية سواء بالحضور المادي من خلال عدد من الآليات "الجباية-القضاء-الشرطة-الحاكم/ممثل السلطان..." أو من خلال السلطة الروحية باعتباره أميرا للمؤمنين في مناطق قاصية كانت الدولة المغربية خاصة في مراحل ضعفها غير قادرة على بسط نفوذها المادي عليها.

يؤكد هويل على تفكك السلطة وافتقاد الرابط بين ساكنة المغرب ليبرر التدخل الفرنسي بوحشية الصراع وعنفه "عند الفجر، انقض هو ورجاله على الدواوير، أبادوا المدافعين عنها، أفرغوا مخازن الحبوب، ساقوا قطعان الماشية، اختطفوا البنين والبنات، جاءوا بأسرى إلى المعسكر. كان هؤلاء التعساء مقيدون مع بعضهم البعض من معاصمهم بواسطة سلسلة فولاذية، ولم يكن باستطاعتهم تحريك أيديهم دون تحريك أيدي جيرانهم. كان يتم اقتيادهم مرتين في اليوم، دون فك قيدهم، خارج المعسكر لقضاء حاجاتهم الطبيعية، هذا العرض كان يمكن أن يكون ملهما لرابلي في كتابة قصص جيدة. في المخيم كانوا يظلون جالسين القرفصاء على الأرض، ولا يتناولون من الطعام سوى معجون البشنا القذر، يظلون على هذه الحال إلى أن يتمكن آباؤهم أو أصدقاؤهم من دفع الفدية للكلاوي. وكان من بين هؤلاء الأسرى شخصان يبدو أنهما على قدر من الأهمية، لأنهما كانا يتلقيان معاملة تفضيلية، كانت معاصمهم مضغوطة داخل جلد مبلل ذا حواف مطوية/مخيطة بإحكام شديد، كان هذا الجيب الجلدي ينكمش/يتصلب عند الجفاف، كانت الأظافر تخترق اللحم، وقد شهدت معاناتهم الرهيبة جراء ذلك في تشنجات الوجوه والتهاب العيون، ورغم ذلك لم يكن يند عن شفاههم المتقلصة أدنى صوت إلا من تضرعات إلى الله لا تنتهي"[٤١].

هذه الصور السادية الموغلة في الوحشية بقدر ما عبرت عن وقائع حقيقية لتمظهرات عنف لا يخلو منها أي مجتمع إنساني، عبرت في نفس الوقت عن رؤية استشراقية لم يستطع الكاتب الخروج من إسارها، وهي صور كان كل الرحالة والأدباء والصحفيين والمغامرين الأجانب حريصين على نقل أصدائها لإشباع أفق المتلقي الغربي، وتأتي أهميتهم هنا في استبطانهم للوقائع من الداخل، وهو ما صرح به هويل نفسه بأن هذا ما كان منتظرا منه من لدن رؤسائه[٤٢].

إن تيمة الفوضى التي احتفى بها الفكر الاستشراقي، وجعلها إحدى أهم مظاهر وسمات الشرق، والتي لم تكن سوى مدخل لتبرير السيطرة عليه، كان الكاتب منذ البداية على وعي بها، وتجلى ذلك بشكل واضح عند حديثه عن أسباب مقتل الأوروبيين بميناء الدار البيضاء، حيث أهمل الأسباب الحقيقية والمباشرة للمذبحة[٤٣]، وظل أسير الرؤية الاستشراقية بربطه الحادث بالاضطراب السياسي الناجم عن الصراع السلطوي المزمن بين القيادات المحلية بإثارة النعرات والفوضى لإثبات عدم أهلية الخصوم، بسعي المنافسين المبعدين عن السلطة بقرارات من السلطان، إلى التأكيد على أنهم الأجدر والأحق بالحكم والأقدر على فرض الأمن والاستقرار "هز اضطراب عنيف، مدة عدة أسابيع، الحياة المطمئنة لساكنة الدار البيضاء. اضطراب كان بتحريض من قايد أولاد حريز سي حمو، نجل الباشا السابق. سعى سي حمو إلى خلافة والده، ولأنه لم يتقبل تفضيل السلطان لغريب ليكون على رأس المنطقة بدلا عنه ونتيجة لذلك قام بتنظيم مجموعة من الغزوات بضواحي المدينة، ليبرهن على عجز هذا الأخير على فرض النظام"[٤٤].

يتبين من خلال النص رؤية الكاتب لطبيعة السلطة المغربية، فيراها متذبذبة وغير مستقرة، عبارة عن حلقة مفرغة تعاني منها سلطة لا تعرف الاستقرار في واقعة تذكرنا بالمقاربة الانقسامية لدى روبير مونطاني في أطروحته "المخزن والبربر"[٤٥] لنمط سوسيوسياسي يعتمد البروز المستمر للزعامات القوية الحائزة لثقة المخزن ويمثله هنا: سي بوبكر. كما لمح في نفس النص إلى الدور التفكيكي للمخزن من أجل إضعاف النظام السلطوي والسياسي للقبيلة، وتشجيع الانقسامات والتناحرات عن طريق دعم القيادات الصغرى للحيلولة دون بروز قيادة مهمة وتقليص نفوذها. فالاضطراب المفضي إلى قتل الأوروبيين التسعة كان وراء إبعاد السلطان المولى عبد العزيز لقايد أولاد احريز سي حمو نجل الباشا السابق، وتفضيل سي بوبكر الغريب عن قبائل الشاوية، وبالتالي حرمانه من ميراث والده السلطوي، للحيلولة دون بروز قوة قايدية متجذرة، قد تنافس المخزن المركزي أو قد تعصف بوجوده[٤٦].

هكذا نرى كيف هيمنت الرؤية الاستشراقية على المتن السردي للكاتب، فكان حريصا على إشاعة خطاب يتبنى أطروحة لا ترى في المغرب سوى مجال للفوضى والتمرد قمة "الصراع حول العرش بين سلاطين العلويين/الصراع بين الزعماء المحليين" وقاعدة "الصراع القبلي/الغزو البدوي على الحواضر". وهو يكتب ويلتقط تفاصيل الفوضى المغربية، لم يستطع الارتقاء والخروج من شرنقة الاستشراق، حين جعلها نتيجة لأسبابها تافهة، أو بسبب الصراع حول امرأة، أو فقط للاستيلاء على ممتلكات الجار[٤٧]، مما يعطي انطباعًا لدى القارئ بتفاهة الأهلي، وقصوره، وضيق أفقه الفكري، وأنه يعيش في دوامة من التناحرات القبلية، لعدم امتلاكه لمشروع مجتمعي محدد، فلا بأس إن منحته فرنسا مشروعها الاستعماري. وإذا كان حديث هويل هنا عن الفوضى المغربية وتفسير أسبابها، قد اشتمل، بشكل مضمر، أطروحة التحقير، فإن هذه الأخيرة تبرز في كثير من مقاطع سردية هويل بشكل واضح وصريح.

رابعًا: أطروحة التحقير

كانت أطروحة التحقير من الأطاريح، التي انبنت عليها الرؤية الاستشراقية، ولم يخرج هويل عن إسار هذه الرؤية، التي انفجرت في أول لقاء للكاتب مع المغرب، ولأنها جاءت في أفق محتدم بالمنافسة بين قوى أجنبية حول المغرب، فجر عنفا دمويا ذهب ضحيته مجموعة من الأجانب كان من بينهم فرنسيين بميناء الدار البيضاء. استدعى الحادث انتقال هويل إلى الشاوية/ مسرح "الجريمة" لتغطيته صحفيًا، وكانت هذه الملامسة العنيفة بين الغرب والشرق على أرض المغرب وراء أول انفعال عصف بوجدان هويل، الذي تجسد في صورة استشراقية تحتفي بأطروحة التحقير للأهلي/الأصلاني. فمنذ الوهلة الأولى وهو على ظهر الباخرة الإسبانية المنطلقة نحو الدار البيضاء، يضعنا المؤلف أمام الآخر المختلف في الدين والعرق والفكر، فيدمغه بالجمود والغياب المطلق عما حوله "غير مبالين بما حولهم"[٤٨] في صورة توحي بالصمت والوهن والاستسلام. صورة تنم عن بلادة الحس وثقل الشعور، وعن تراتبية هجينة قائمة على العبودية للوفد المغربي، في مقابل صورة الوفد الفرنسي المطبوعة بالحيوية والحركة، وتسمها الندية بين أفراده، ولا تشكل التراتبية المهنية نشازا لهذه الندية ما دامت تقوم بدور وظيفي/ مهني لا يزري بإنسانية الإنسان على عكس التراتبية المخزنية/المغربية المنتشي هرمها بتسخير الأدنى، واستخدامه استخدام السيد للعبد.

لا يكتفي الكاتب بالهمز واللمز، و بالتعبير البلاغي، والصور المجازية الدالة على حقارة الأهلي، بل يلجأ إلى الأسلوب الصريح المباشر، فيسم المغاربة بتدني الأخلاق والتعيش على الغش والتهريب، وتفضيل حياة الاضطراب، من أجل تحقيق الاغتناء غير المشروع، الناجم عن الفساد، على حياة الاستقامة والنزاهة، ووسم قبائل الشاوية بكونها قبائل نهب وسلب، تتحين أوقات الاضطراب للانقضاض على المدينة كأسراب الجراد، فتأتي على الأخضر واليابس، لا تفرق بين أجنبي دخيل أو أهلي/أصلاني[٤٩]، ورأى ساكنة المدينة مجرد أناس منغلقين على أنفسهم كارهين للآخر "الناس -هنا- صموتين كتومين"[٥٠] لذلك رآهم جديرين بالسحق، متخذا من قتل الأهالي بميناء الدار البيضاء لثلاثة فرنسيين، وثلاثة إسبانيين، وثلاثة إيطاليين، غلالة رقيقة لشرعنة دك المدينة "فجأة منحت مذابح الدار البيضاء الفرصة غير المأمولة - للضباط - للقيام أخيرا بعمل جدير بشجاعتهم"[٥١]، ولم تخلو كلماته من عنجهية في محاولة منه لتبرير قهر الأهلي/الآخر، والإشادة بتحقير رموز السلطة الحاكمة، إمعانا في إذلالها، وخدش هالة الهيبة التي صنعتها بين المغاربة على مدى قرون من التنكيل الوحشي، والقمع الجماعي الرهيب للقبائل المتمردة[٥٢] "بعد ربع ساعة، قدم باشا الدار البيضاء على صهوة بغلته محاطا بحرسه الخاص...ظل الباشا على ظهر البغلة، فما كان من بالاند[٥٣] إلا أن جذبه من ثيابه، وأجبره على النزول أرضًا"[٥٤].

سعى المؤلف بكل ما يملك من أدوات ومعلومات تاريخية إلى إقناع المتلقي بمشروعية اللجوء إلى آلة الدمار والحرب ضد إنسان/ أهلي حقير لا يستحق أدنى ذرة من التعاطف، فرسم صورة جنائزية رهيبة تقشعر لها الأبدان، رسم مشهدا صادما للقتلى المكومين بعضهم على بعض كالأنعام، تجللهم الدماء المنفرة، وقد تشوهت خلقتهم بشكل رهيب[٥٥].

اختار الكاتب فضاءً زمنيًا متوترًا ليسوغ المواجهة غير المتكافئة بين المستعمر الممتلك لأعتى الأسلحة الحربية ذات التقنية العالية، في ذلك الوقت، والمستعمر الأعزل الممتلك سوى لأسلحة بيضاء أو لبعض البنادق المهترئة من نوع "بايونيت"[٥٦]، وعدد جد محدود من المدافع البرتغالية التي تصدت للهجوم الكاسح للبحرية الفرنسية على المدينة، فكانت عديمة الجدوى بشهادة المؤلف نفسه[٥٧].

سيطرت الروح الاستشراقية/ الاستعمارية، والأنا المتضخمة، على كلماته، فنفث مقته في فقرات تنضح بالاحتقار والاشمئزاز من كل ما هو مغربي، حتى وهو بعيد كل البعد عن وصف مشاهد المواجهة والصراع، فقدم المدينة المغربية في صورة كالحة خالية من الجمال، يسيطر عليها القبح والتنافر[٥٨]، مدينة مرتمية في حضن طبيعة قاحلة جرداء، في صورة تذكرنا بالمدينة العربية كما وردت في الأدبيات الاستشراقية، حيث يتناغم القبح والقذارة. وخلص إلى أن جفاء المغاربة ما هو إلا نتاج حتمي لقسوة الطبيعة[٥٩]، هذا الجفاء الذي لم يجد من ضحية يمارس عليها ساديته إلا في أضعف وأهون مكون للنسيج المجتمعي بالمغرب مجسدًا في اليهود زاعمًا أنهم الضحية المثلى لأي اضطراب أو قلق اجتماعي، فعليهم تمارس أقسى أنواع السلوك الوحشي من اغتصاب وسبي ونهب للممتلكات[٦٠]، الضريبة الباهظة المؤداة جراء عيشهم في كنف الحواضر الإسلامية، وذلك في مغالطة تاريخية لا تستقيم مع الواقع المغربي بتناسيه أن غارات البدو على الحواضر المغربية لم تكن تقيم أدنى اعتبار للملل والنحل والأعراق.

وبتجاهله ذلك أرخى العنان لقلمه ليصف منظرا صادما ليهوديات متردیات في مهاوي الذل والهوان والاستضعاف "كانت اليهوديات يجأرن بالشكوى بغير انقطاع، وكانت أخريات بنظرات زائغة"[٦١]، جاعلاً من تعاطفه مع اليهودي في محنته وسيلة لتبرير أطروحة التحقير الاستشراقية للأهلي المتوحش، خدمة لأهدافه الاستعمارية أولا بدعوى رفع الدونية عن اليهود، وثانيا بالتخفي وراء وهم الرسالة الوجودية والحضارية للإنسان الأبيض اتجاه الأهلي بانتشاله من عتمة الجهل والتخلف وتهذيب سلوكه الوحشي، ولو كان ذلك بالدم والحديد، فهذا الأهلي، لأنه كان يراه حقيرا، لم يستثر في نفسه أدنى تأنيب للضمير، حين عاب على الجنرال "درود"[٦٢] تردده وسلبيته في اقتحام المدينة، وانتهى إلى تبني دعوة صريحة لممارسة العنف من أجل معانقة المجد والنجاح[٦٣]، وشاطر الجنود الفرنسيين، وهم في عرض البحر، حسرتهم وهم يراقبون، مكتوفي الأيدي، المدينة المتمردة مدة عشرة أيام، في انتظار إشارة القنصل المتردد، وتحدث عن تنامي حسرة الجنود حينما علموا بوجود حملة عسكرية بميناء وهران على أهبة الاستعداد للإبحار نحو الدار البيضاء مما سيحرمهم من شرف احتلالها، ورأى في صلف أنه من الواجب على هؤلاء الجند تبني خيار العنف، واجتراح حيلة ما لزحزحة القنصل الفرنسي عن عناده وتصلبه[٦٤].

ولا ترتبط أطروحة التحقير عند هويل بالاحتلال/ الاختراق العسكري في بداياته الأولى، وإنما نجدها عنده كذلك عند مساهمته في إخضاع قبائل الشاوية، وفي صورة شبيهة تمامًا بما جرى بمدينة زرهون، حيث تم تجميع الشرفاء على شكل دائرة محاطين بالسباهي، لتملى عليهم شروط الأمان في مشهد يذكرنا بالرهائن البربر وروما الإمبريالية، والذي يقول عنه المؤرخ الفرنسي دانييل ريفي: "مشهد عريق...فخم وعظيم"[٦٥]، إلا أن هذا المشهد لاشيء إذا ما قارنه بالمشهد الذي يصفه هويل، والسابق زمنيا، ففيه تمتزج الفخامة والعبودية الاستعماريتان بالأجواء الدرامية لانكسار الفرسان المغاربة، البالغ عددهم ألفي فارس، والمتحمسين للقتال حتى آخر رمق رغم يأسهم من الانتصار، بإعلانهم الاستسلام على مضض بفعل الهمسات/ الكلمات المثبطة لشيخهم الروحي البوعزاوي[٦٦].

تبلغ أطروحة التحقير ذروتها بتحول هذا الأخير من مجرد رؤية نفسية وفنية مجردة لكاتب، لم يستطع الانعتاق من إسار النظرة الاستشراقية، إلى واقع مارسه الاحتلال على الأهالي في جو مفعم بالمهانة والإذلال "غادرت الجنرال داماد مرتاح الضمير، كان القياد مترددين[٦٧]، لكن رغم ذلك فقد بدأت عملية الخضوع، التي كان يجب متابعتها إلى النهاية، كما ارتأى البوعزاوي.

تم إرسال الرقاصة إلى القبائل، ومع الساعات الأولى لحلول المساء، تقاطر الرجال مدججين بالأسلحة لاعتقادهم أنهم قد استدعوا للقتال. مما استوجب مجادلتهم لإقناعهم بأن القوة العسكرية للرومي تجعل من خضوعهم أمرا حتميا[٦٨]، ابتهج بعضهم لهذا الاقتراح، وأبدى آخرون سخطهم متلفظين بالشتائم، ولكنهم في النهاية لم يجدوا مناصًا من الرضوخ. ونظرًا لكثرتهم، كانوا أكثر من ألفي –مقاتل-وفق تقديري، فقد

رتبهم البوعزاوي على شكل جبهة، واضعًا الفرسان في الواجهة، ثم مر بين صفوفهم للتكلم معهم.

هكذا كانوا يظهرون، في الصفوف المتعددة العميقة، على شكل حشد متباين من الرجال والحيوان. في المقدمة كانت رؤوس وصدور الخيل تشكل قوسًا متحركا لهذه الكتلة المقاتلة، وكنا نرى على ظهور الخيل الرؤوس الحليقة للفرسان وهي محاطة بخيط رفيع بخصلات من الشعر متدلية على الوجنات. كانت أشعة الشمس تسقط على الوجوه بشكل مائل، فتجعل بشرتها الداكنة تتوهج. كان هناك من بين الحضور شيوخ وبالغين بلحاهم وشباب غض ومراهقين بنظرات قاسية. كان ثلاثة أرباعهم يرتدون خرقًا وبرانس مرقعة بلون الأرض. كان الخيالة يمتطون ظهور الخيل على سروج قذرة مكسورة أو على أكياس بسيطة تم إلقاؤها على ظهر الحصان وتم تثبيتها بحبل مرر من تحت بطنه، وكانت سيقانهم العارية تتدلى في الفراغ. ومن موقفهم هذا كانوا يتأملون في صمت أبخرة الدخان التي لاحت في الأفق متصاعدة من المعسكر الفرنسي. كانت كلمة واحدة تكفي لإطلاق العنان لهم، ومن المفروض أنه هكذا واجهت جحافل يوغرطة فيالق الرومان، ومن الممكن أن تكون في نفس هذه الأماكن. وحينما لم تعد الشمس تضيء المدى سوى بضوء خافت، ومع حلول وقت الصلاة، انحل جمعهم، ولم أرى منهم بعد برهة إلا ظهورًا جامدة منحنية في اتجاه الشرق والجبين على الأرض"[٦٩].

فكلمات النص تشي وتنضح بثنائية ضدية ثابتة، تحمل في طياتها تحقيرًا متعدد المستويات للأهالي: حضاري وأخلاقي وفيزيولوجي، ويمكن أن نستشف الوجه غير المعلن لهذه الثنائية المانوية المبسطة انطلاقًا من وجهها المعلن المنعكس على مرآة الكتاب/ مرآة الاستشراق عبر التعبير عنها بالجدول التالي:

قبائل الشاوية/ البربر القدامى الصورة المعلنة	فرنسا/ روما الصورة المنعكسة
- جحافل فوضوية - آليات حربية عتيقة - توحش تعكسه الأزياء والنظرات والغضب الجامح - سحنة قاتمة - الشيخ البوعزاوي /يوغرطة - قتال يائس - هزيمة	**- جيش نظامي** **- آليات حربية عصرية** **- حضارة تعكسها تنظيمات المعسكر الفرنسي وتقسيماته** **- سحنة منيرة** **- الجنرال الفرنسي داماد/القائد الروماني** **- يقين بالنصر** **- نصر**

إن هذه الثنائية التي ميزت الخطاب الاستشراقي/ الاستعماري، كانت ترى أنه لا سبيل للقاء بين المستعمر والمستعمر، أي بين الإنسان الغربي والشرقي إلا حينما يصبح هذا الأخير تابعا للأول، مما سيؤدي إلى تعديل وضعه، إلا أنه رغم ذلك لن يكتسب السوية البشرية الطبيعية[٧٠]، فيكون مثل العبد الذي يحاول تقليد سيده، لكن لن يتبوأ رتبة السيادة، فعبوديته هي المانحة لقيمته[٧١]، ولابد أن تكون هذه التبعية مطلقة، فلا يكفي أن تأتي بالاستسلام وحده بل عن طريق السحق والإذلال. فحين تم إقناع قبائل الشاوية، بصعوبة من طرف الزعيم الروحي البوعزاوي والصحفي الفرنسي هويل، بضرورة الاستسلام لوقف نزيف الدم، ودفعاها إلى طلب الأمان وإعلان الخضوع، ولما قررت ذلك في صباح يوم يقول عنه هويل، طلعت فيه الشمس مشرقة السنا، شبيهة بالشمس التي طلعت يوم صبيحة أوسترليتز " طلعت الشمس، في يوم الغد، بهية الإشراق، وكأنها في إشراقها شمس أحد أيام أوسترليتز، إنها شمس السلام"[٧٢]، وباقترابها من المعسكر الفرنسي، صبت القوات الفرنسية وابلا من قذائف المدفعية والرشاشات عليها، فاندفع رجالها مذعورين عبر الحقول. حلت الكارثة وكانت مذبحة عظيمة حلت بالأهالي الذين أخذوا غدرا، وكادوا أن يفتكوا بهويل، لاتهامه بتدبير المذبحة وجرهم للكمين الفرنسي، ولم ينجيه من أيديهم سوى تدخل فرسان البوعزاوي الذين افتكوه من بين أيدي الغاضبين، ورحلوا به بعيدا على ظهر خيولهم، وذلك بعد عجز البوعزاوي عن الحيلولة بينه وبينهم، إذ لم تنفع ما يتمتع به من كرامة وسمعة من تهدئة غضبهم[٧٣].

لم يجد الكاتب تفسيرا للحادث وهو الذي أخبر الجنرال داماد بمجيء البوعزاوي على رأس أتباعه إلى المعسكر الفرنسي لإعلان استسلامهم للقوات الفرنسية، وقد طرح عددًا من الافتراضات والتساؤلات بشأن الحادث: هل كان ذلك ردًا من قواتنا على هجوم تعرضت له من طرف أنصار عمر السكتاني[٧٤]؟ هل كانت قوات مدفعيتنا على غير علم بخبر الاستسلام، فاعتقدت حين رأت حشود المستسلمين تنتشر بالقرب من المعسكر مظهرًا من مظاهر الاستعداد لتنفيذ خطة للهجوم عليه، فبادرت بإطلاق النار؟

لم يجد الكاتب جوابًا شافيًا لتساؤلاته، وحتى حين سعى لتبين خفايا المأساة، فيما بعد، لم يتذكر أحدهم القضية أبدا[٧٥]. ولا نجد تفسيرًا لهذا النسيان الذي لحق الذاكرة الاستعمارية إلا في كثرة ما أسيل من دم بالشاوية، ولفظاعة المجازر التي ارتكبتها قوات الاحتلال سواء بالشاوية أو بالمناطق التي عبرتها

وهي في طريقها نحو فاس عاصمة الإمبراطورية الشريفة[٧٦]، فأي مذبحة هي تلك التي سيتذكرها المستعمر الفرنسي. ويتذكر ملابسات حدوثها وإن كانت قريبة العهد[٧٧]، كما نجد تفسيرًا لها في الرؤية الاستشراقية ذات الأطروحة التحقيرية للأهلي/المستعمر، التي كانت تعتبر التمايز بين الغربي والشرقي/الآخر يصل حد التمايز بين الإنسان والحيوان، لذلك فلا تترب على الذاكرة الفرنسية الاستعمارية إن هي لاذت بالنسيان، ليس نسيان العفو والصفح[٧٨] بل نسيان التحقير والتعالي.

خَاتِمَةٌ

لم يستطع كرستيان هويل الانعتاق من إسار الرؤية الاستشراقية، فقد انطلق من نماذج كان قد تم وضعها من قبل في سياق تميز باختلال موازين القوى بين الشرق والغرب، وأدى إلى إنتاج خطاب ورؤية خاصة بالشرق هي وليدة تلك العلاقة غير المتكافئة. نماذج انطلق منها ليبرر احتلال المغرب بشكل عقلاني مستغلا ظرفية تاريخية مطبوعة بالصدام بين الغرب والشرق، نتج عنها لقاء دام وعنيف جرت أحداثه على أرض المغرب. وقد قدم لتبرير هذا الاحتلال عددا من الدفوعات المتماسكة سياسية واقتصادية واجتماعية[٧٩]، نجدها في الصور التي رسمها لليهودي البائس المضطهد "الجزء المحترق من الملاح ليس أكثر من ركام أنقاض متفحمة، نساء جالسات على الأحجار بوجوه مخدوشة من أثر أظافرهن، وجوه موسومة بالبؤس والحداد. رجال بلحى شعثاء، ووجوه سخماء، وملابس ملطخة وممزقة"[٨٠] المتطلع إلى ظهور المخلص/الفرنس"، ومع ذلك أنعش ظهور جندنا هذه القلوب المنطفئة، وتستمر الحياة على الرغم من الخراب، وعلى الرغم من هتك الأعراض، وعلى الرغم من القتلى. وهكذا فإن الذين كتبت لهم النجاة من مثل هذه المذبحة الرهيبة سوف ينخرطون في الحياة الجديدة التي يحملها لهم الفرنسيون، سينسون، وسيقبلون على أشغالهم، وسيغتنون. سيستبدلون بدلاتهم السوداء بأخرى أنيقة، سيقتنون الأراضي التي كان محرم عليهم اقتناؤها حتى الساعة، سيصبحون مُلاكًا لأغلى عقارات الدار البيضاء، فما من عرق آخر كان له هذا المصير الرائع"[٨١]، هذا المخلص الذي يقدمه الكاتب رسولا للعناية الإلهية للبشرية جمعاء، لأن مهمته لا تنحصر في رفع الدونية عن اليهودي فقط، بل تشمل الأهلي البدائي، عن طريق إلحاقه بركب المدنية الحديثة وانتشاله من عتمة الجهل والتخلف وتهذيب سلوكه الوحشي، وبذلك يتحول الاحتلال إلى رسالة وجودية، تستمد مبرراتها وتقوم مرتكزاتها على رؤية استشراقية، تتفجر أطاريحها على طول سردية، من المفروض أن تكون واقعية منشغلة باليومي والطارئ، لم تستطع الانفكاك من إسار القراءات الاستشراقية، فحفلت بأطاريح الفوضى والتحقير والاستبداد الشرقي و الشبق الجنسي.

وفي هذا لم يختلف هويل عمن سبقه من الفرنسيين الذين كتبوا عن المغرب إلا في واقعيته المفرطة ورؤيته الباردة لما حوله، فلم ينشغل بالنزعة الغرائبية كما نجدها عند دولاكرو[٨٢]، أو عند شوفريون[٨٣]، أو بيير لوتي[٨٤]، التي ود معها هذا الأخير لو ظل المغاربة ملتصقين بالغبار مدى الحياة بعيدًا عن صخب المدنية الحديثة وتحولاتها غير المنتهية، وتمنى لو يكون آخر حادي عيس عربي تفيض روحه تحت شمس يوم قائظ، وهو يمد يدين واثقتين إلى السماء، ونفسه ملؤها اليقين في الله والرضا به، بعد حياة حافلة قضاها عابرًا الصحاري الكبرى، على أن يكون عاملاً بأكبر مصنع أوروبي أو سائقًا أو دبلوماسيًا، يقضي عليه الموت وهو على فراشه مجدفا سيء الظن بالله، جاحدا لأنعمه، غب حياة ضنكا استنفدت في العمل الممض الرتيب، ملأى بالشهوات الفانية[٨٥]، فعلاً شعر أنه أصبح قليلاً ما عربيًا، كما نازعته نفسه لو أصبح عربيًا بشكل كلي، حين اندمج في الأجواء الروحية التي شهدتها الصلاة الجماعية للمولى عبد الحفيظ وأتباعه بجامع الفنا بمراكش، قبل انطلاقه نحو فاس لقتال أخيه السلطان الشرعي المولى عبد العزيز.[٨٦]

إلا أنها كانت مشاعر عابرة تفتقد الحرارة التي نجدها عند من سبقه، فسرعان ما كانت تتلاشى أمام هوس الكاتب وانشغاله بمستقبله الفردي وبمآل المغامرة الاستعمارية الفرنسية، في وقت اشتدت فيه المناكفة الألمانية، التي نقل جزءًا منها عند حديثه عن العلاقة المتوترة التي جمعته بالدكتور/الطبيب هولتزمان[٨٧] الذي يدعي بأنه سوري درس الطب بألمانيا، في حين يعتقد اليهودي يعقوب حزان أنه يهودي ارتد عن دينه واعتنق الإسلام، وقد ساعده تظاهره بالإسلام وإتقانه اللهجة السورية في تكوين شبكة علاقات مع علية القوم بمراكش، كما ساعده في ذلك شهرته بين الناس كوكيل سياسي مما كان يبرر علاقاته مع القنصل الألماني[٨٨].

ولا يمكن أن نرجع فقر سردية هويل على مستوى الغرائبي[٨٩]، وتصوير الأجواء الرومانسية للبيئة المغربية[٩٠]، إلى عدم امتلاكه القوة التخييلية واللغة الشاعرية التي تميز بها من سبقه، أو لعلو موهبتهم الأدبية وسمو ذائقتهم الفنية، وإنما نرجعها ونجد تفسيرًا لها في أنها جاءت في فترة عاصفة احتدمت فيها المواجهة مع الأهالي، وتناثرت فيها الأشلاء والدماء،

فكان لابد أن يتعامل معها بشكل واقعي، وإن لم يستطع التخلص من إسار الرؤية الاستشراقية.

وقد جاء هذا الجفاف العاطفي في التعامل مع الأحداث، وهذه الواقعية المفرطة، إضافة إلى كونه صحفي معني بالدرجة الأولى باليومي والطارئ، نتيجة لعوامل أخرى متضافرة سياسية واجتماعية واقتصادية، يمكن إجمالها فيما يلي:

- طغيان النزعة الاستعمارية ووضوحها في نص هويل، التي قامت على امتلاك الاستعمار الفرنسي الشرعية التاريخية في استعادة أمجاد روما القديمة بالمغرب، واتهام العرب بجلب الخراب لبلاد المغرب، وقيامهم بتدمير معالم الحضارة الرومانية.[٩١]
- تضمين متنه معجمًا ينضح بالنفور والاشمئزاز والتحقير، إضافة إلى ما ذكرنا من قبل، فالمغاربة في قاموسه لا يحسنون آداب المائدة "يحتسون الشاي المنعنع...برشفات جلبة"[٩٢] ولا يرون في المدنية الحديثة سوى نبت شيطاني يجب مقاومته بالعنف "إن هذه الآلة النافثة للنار والدخان... كانت اختراعًا شيطانيًا"[٩٣] في أعين المغاربة.
- طغيان التبريرات الاقتصادية التي ليس لها من بعد سوى المنفعة الشخصية، فقد استرجع مشهد نساء اليهود وهن يصطرخن في جحيم العذاب والهوان بأريحية قائلاً: لا تترب عليهن فهذه المأساة هي التي كانت وراء امتلاك اليهود لأثمن وأغلى عقارات الدار البيضاء.[٩٤]
- وفاؤه لميراثه الثقافي الضخم الذي جسده ثلة من فلاسفة الأنوار الذين أذكوا روح الكراهية للشرقيين بين صفوف المجتمعات الأوروبية، واستعدوها عليهم[٩٥]، ويأت على رأس هؤلاء مونتسكيو الداعي إلى التخلي عن الأخلاق والفضائل في عالم السياسة، فهو صاحب المقولة: "إن جميع الرذائل السياسية ليست رذائل أخلاقية...وكل الرذائل الأخلاقية ليست رذائل سياسية" (روح الشرائع، الكتاب ١٩، الفصل ٢)،[٩٦] مما يعني أن مونتسكيو كان يدعو إلى عدم الحكم على التاريخ بمعايير دينية أو أخلاقية، وأنه يجب على العكس من ذلك وضع الدين والأخلاق ضمن سياق ووقائع التاريخ[٩٧].

لقد كان هذا هو النبع الأصيل الذي تشربت منه روح هويل وغيره لثقافة نابذة للآخر قائمة على الكراهية والعنف، ثقافة اخترقت عصرًا بكامله. وهو ما نلمسه بشكل جلي حين نجده يتماهى في احتفائه بقنبلة الدار البيضاء، وهو المثقف المغامر الذي انصهر في بوتقة المجتمع المغربي مدة أربع سنوات، مع سان أولير اللاهث وراء المجد السياسي الذي امتلأ زهوًا وفخرًا بعمليات الإنزال بالدار البيضاء[٩٨].

كل ذلك جعل من متنه السردي أسيرًا للرؤية الاستشراقية بأطاريحها المتنوعة: كالفوضى؛ والاستبداد الشرقي؛ والتحقير؛ والهوس الجنسي..... رؤية استشراقية لم تأخذ من الاستشراق إلا جانبه المظلم القاتم، الذي اتخذته الإمبريالية أداة لتبرير الهيمنة على الشعوب الشرقية.

خلاصة القول؛ إن الرؤية الاستشراقية ذات المنحى الإمبريالي في كتاب هويل كرستيان المغامر والمثقف، والصحفي، واضحة كل الوضوح، تجلت في كونه لم يعر أدنى اهتمام للمعايير الإنسانية والقيم الأخلاقية، ولم يبد أدنى تعاطف مع المغاربة في محنتهم، وكان منذ البداية على وعي تام بجغرافية وتضاريس الأرض الفكرية التي كان عليها يتحرك، ومنها كان يدير دفة السرد.

الاحالات المرجعية:

(1) كرستيان هويل: مؤسس جريدة "**لادبيش ماروكين**" و"**لاكسيون ماروكين**"، صحفي ومغامر فرنسي نزل بالدار البيضاء سنة ١٩٠٧ كمراسل لجريدة "**لوماتان**" الباريسية و"**لادبيش ماروكين**" الطنجية. تميزت كتاباته بالحدة والعنف، فقد وجه انتقادات حادة للجنرال موانيي، قائد قوات الاحتلال بالشاوية، وكان من أنصار الإلحاق دفعة واحدة، عاب على موانيي نهجه سياسة حذرة قوامها احتلال المغرب عبر مراحل، لأجل ذلك تم إبعاده سنة ١٩١٠ من طرف موانيي، لتتم المناداة عليه من طرف الإقامة العامة سنة ١٩١٣ لإدارة جريدة تكون ناطقة باسمها، فأسس جريدة "**ليزانال ماروكين**" بطنجة في يونيو ١٩١٣، ثم نقلها إلى الدار البيضاء لتكون أول مجلة أسبوعية تصدر بهذه المدينة، وقد حملت على عاتقها الدفاع على مصالح المعمرين بها، دخل في مناوشات مع الإقامة العامة فيما يتعلق بتدبير المدينة وتطهير شوارعها، ومواجهة وباء التيفوس الذي ذهب بأرواح الكثير من سكانها، فتم ترحيله رفقة زميله"روزيه" سنة ١٩١٤ بأمر من ليوطي، وكان الإبعاد الثالث والأخير بدوره من توقيع هذا الأخير وذلك مباشرة بعد أن هدأت الزوبعة السياسية والاقتصادية والاجتماعية التي أثارتها أزمة النقد الحسني سنة ١٩١٩، والغريب في الأمر أن الحماية لم تعلل قرار الإبعاد بمواقفه الصحفية أثناء الأزمة، بل بررته باعتباره صاحب سوابق في امتهان الصحافة وممارسة الابتزاز ونشر الفوضى، لذلك أدين بجنحة العود، وكانت التهم التي وجهت إليه كالتالي: -ذم السلطان والمس بهيبته؛ –المس بسمعة إسبانيا؛ –معاداة السامية. والجدير بالذكر أن قرار الإبعاد شمل صحفيين اثنين آخرين هما: بوفي وإيدولان، اعتمدنا في وضع هده الترجمة على:

Houel, Christian, **Mes aventures marocaines**, Casa édition, Rabat, 2014, p, 11.

Baida, Jamaa, **La presse marocaine d expression française des origines à 1956,** publication de la faculté des Lettres et des sciences Humaines, Rabat, 1996 , p, p, p, 110, 111, 11. Boutoubqalt, Tayeb, **La politique d'information du protectorat français au Maroc 1912-1956**, 1(ére) édition 1996, Les éditions maghrébines, Casablanca, de p, 296 à p, 300.

(2) لمزيد من التوسع في فهم كيف انبنت الإيديولوجية الاستعمارية على مفاهيم الاستشراق، يمكن الرجوع إلى: بدر، أشرف، "الإيديولوجية الصهيونية والغرب، رحلة التوظيف من الاستشراق إلى الإسلاموفوبيا" **الاستغراب**، العدد السادس، السنة الثانية، شتاء ٢٠١٧، ص، ١٠٢.

(3) Houel, Christian, **Mes aventures marocaines, Casa** Express Editions – Magellan& Cie, 2014, p ,75.

(٤) الشيخ، ممدوح، **الاستشراق الجنسي**، مطبعة مدارك ابن رشد، القاهرة الطبعة الثانية ٢٠١٥، ص، ٨١.

(5) Houel, Christian, **Mes aventures marocaines**, op. cit, pp. 7٤ ,70.

(٦) الشيخ، ممدوح، **الاستشراق الجنسي**، مرجع سابق، ص، ٧٥.

(7) Le droit de cuissage.

(٨) ثورنتون، لين، **النساء في لوحات المستشرقين**، ترجمة مروان سعد الدين، المدى، الطبعة الأولى ٢٠٠٧، ص، ٢٢.

(9) Houel, Christian, **Mes aventures marocaines**, op. cit, p. 82.

(10) Ibidem.

(11) لا يعتمد الكاتب هنا الرواية الحرفية للمرضعة الزنجية، ولكنه أحيانا يستعمل كلماتها الحرفية، ويلجأ في الهامش إلى ترجمتها إلى اللغة الفرنسية.

(12) Biarnay.

(١٣) قرية مغربية توجد وسط المغرب، تابعة لإقليم أزيلال، عن **ويكيبيديا**.

(14) Houel, Christian, **Mes aventures marocaines**, op. cit, pp. 123-124

(15) Ibid, p. 74.

(16) Douté, Edmond, **En Tribu, Missions Au Maroc,** Dar Al Aman, Rabat, 2015, p. 146

(17) Loti, Pierre, **Au Maroc,** Eddif, 2008, ppp. 238-239- 240.

(18) Houel, Christian, **Mes aventures marocaines**, op. cit, p. 42.

(19) Tharaud, Jérôme et Jean, **Fès ou les bourgeois de l'Islam**, Edition Marsam, Rabat, 2008. De p, 105 à p. 114.

(20) دوتي، إدموند، **الصلحاء، مدونات عن الإسلام المغاربي خلال القرن التاسع عشر**، ترجمة محمد ناجي بن عمر، إفريقيا الشرق، ٢٠١٤، ص، ص، ١٠٥، ١٠٦.

(21) Loti, Pierre, **Au Maroc**, Voir par exemple les pages : 240 et 285..

(22) Houel, Christian, **Mes aventures marocaines**, op. cit, p. 65.

(23) Ibidem.

(24) Ibid, p.66.

(25) Houel, Christian, **Mes aventures marocaines**, op. cit, p. 66.

(26) Ibidem.

(27) Ibid, 67.

(28) Houel, Christian, **Mes aventures marocaines**, op. cit, p. 80.

(29) Ibid, p, 71.

(30) Ibidem.

(31) Ibid, p. 83.

(32) Ibid, p, 82.

(33) Ibid, p, 84.

(34) Ibid, p.١٢٢

(35) Ibidem.

(36) Ibid, pp. 122-123.

(37) Ibid, p. 76.

(٣٨) بنسالم، حميش، **العرب والإسلام في مرايا الاستشراق**، دار الشروق، الطبعة الأولى، ٢٠١١ ص،٦٢.

(39) Houel, Christian, **Mes aventures marocaines**, op. cit, p. 76.

(40) يتميز المجتمع الفيودالي، حسب جورج دوبي، بكونه مجتمعا يتميز بتفكك السلطة الملكية، انظر: دوس، فرونسوا، **التاريخ المفتت، من الحوليات إلى التاريخ الجديد**، ترجمة الطاهر محمد المنصوري، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، الطبعة الأولى، ٢٠٠٩، ص، ٣٣٨.

(41) Houel, Christian, **Mes aventures marocaines**, op. cit, p. 76.

(42) Ibidem.

(43) يرجع علال الخديمي الأسباب الحقيقية لحادث مقتل الأوروبيين بميناء البيضاء "٣٠ يوليوز ١٩٠٧" إلى سياسة التغلغل النشيط وبسط النفوذ الفرنسي، أي السياسة الإمبريالية الهادفة إلى استعمار الشعب المغربي، انظر: الخديمي، علال، **التدخل الأجنبي والمقاومة بالمغرب ١٨٩٤-١٩١٠ حادثة الدار البيضاء واحتلال الشاوية**، إفريقيا الشرق، الطبعة الثالثة ٢٠٠٦، ص، ٢١٤.

(44) Houel, Christian, **Mes aventures marocaines**, op. cit, p. 12.

(45) Montagne, Robert, **Les berbères et le mekhzen dans le sud du Maroc,** Essai sur la transformation politique des berbères sédentaires «groupe chleuh» librairie félixalcan, Paris, 1930.

(46) لم يهمل الكاتب الإشارة إلى الإجراءات الغريبة التي أقرتها معاهدة الجزيرة الخضراء، وكانت محل حنق المغاربة، إضافة إلى الإنشاءات التي باشر المستعمر إقامتها بالميناء وراء المجزرة إلا أنه اعتبرها مجرد أسباب عرضية لحادث جوهري تمثل في تضرر مصالح المنتفعين من الغش والتدليس والتهريب.

(47) Houel, Christian, **Mes aventures marocaines**, op. cit, p. 127.

(48) Ibid, p. 11.

(49) Ibid, p. 31.

(50) Ibid, p. 22.

(51) Ibid, p. 19.

(52) Ibid, p. 23.

(53) Ballande.

(54) Houel, Christian, **Mes aventures marocaines**, op. cit, p. 32.

(55) Ibid, p. 21.

(56) Baïonnette.

(57) Houel, Christian, **Mes aventures marocaines**, op. cit, pp. 30-31.

(58) Ibid, p. 20.

(59) Ibid, p. 16.

(60) Ibid, p. 42.

(61) Ibidem.

(62) Drude.

(63) Houel, Christian, **Mes aventures marocaines**, op. cit, p. 40.

(64) Ibid, p. 23.

(65) Rivet, Daniel, **Lyautey et l'institution du Protectorat français au Maroc, 1912-1925,** Tome 1, Editions Harmattan, 1996, p, 116.

(66) Houel, Christian, **Mes aventures marocaines**, op. cit, p. 110.

(٦٧) يعني في إعلان الخضوع - المترجم.

(٦٨) أي أنهم إن لم يخضعوا طواعية، فسيخضعون عنوة نتيجة لتفوق قوات الاحتلال عسكريًا.

(69) Houel, Christian, **Mes aventures marocaines**, op. cit, pp. 110-111.

(٧٠) إبراهيم، عبد الله، "نقد الخطاب الاستعماري"، **جريدة الرياض**، ١٤ شتنبر ٢٠١٣، العدد ١٦٥/٨.

(٧١)نفسه.

(72) Houel, Christian, **Mes aventures marocaines**, op.cit, p. 111.

(73) Ibidem.

(74) البوعزاوي والسكتاني شريفان إدرسيان، كان يتمتعان باحترام وتوقير قبائل الشاوية، اضطر المولى عبد الحفيظ للاستعانة بهما لتهدئة القبائل التي اشتبكت مع القوات الفرنسية بدار القصيبة "بأولاد سعيد الشاوية/المترجم"، حيث كان صدى طلقات المدافع الفرنسية تسمع بالمحلة السلطانية، رغم بعد المسافة، مما جعلها في حالة تأهب. يشير الكاتب أنهم في مساء ذلك اليوم ٢ فبراير ١٩٠٨ علموا أن الأمر يتعلق بمباغتة القبائل لرتل فرنسي مما خلف عددا من القتلى، كما حمل، في كيس، رأسا قتيلين إلى المحلة، مما أثار الرعب داخل حاشية السلطان، الذي عقد مجلسا استدعى إليه أقوى رجلين نافذين بالشاوية هما السكتاني والبوعزاوي للتشاور. انحاز الأول للمقاومة إلى آخر رمق، واجتياز النهر بالقوة "نهر أم الربيع"، في الوقت الذي سيقوم فيه السكتاني وأتباعه بتحويل انتباه الفرنسيين عن المحلة السلطانية. أما البوعزاوي فقد كان يرى على العكس من ذلك باقتراحه أن الخضوع هو السبيل الوحيد لاجتياز النهر "أنه ليس هناك من سبيل لاجتياز النهر إلا بإعلان الخضوع". وعند مناقشة اقتراح السكتاني الداعي إلى اجتياز النهر بالقوة، وتحويل انتباه القوات الفرنسية –باشتباكه معها- ، تم التوصل إلى أنه من غير الممكن فعل ذلك لأن تحرك القوات الفرنسية لم يكن من الممكن التكهن بأن لا يصادف حضورها لحظة اجتياز المحلة للنهر، الأمر الذي يتطلب علاوة على ذلك عدة أيام. انحاز الجميع للاقتراح الذي تقدم به البوعزاوي، فاستدعى السلطان هويل وطلب منه القيام بمهمة التفاوض مع القائد الفرنسي داماد لمعرفة شروطه لقبول خضوع قبائل الشاوية، انظر:

Houel, Christian, op.cit., pp. 85- 86.

(75) Houel, Christian, **Mes aventures marocaines**, op.cit, p. 112.

(76) يشير القبطان كراسي إلى إحراق القوات الفرنسية لكل ما صادفته في طريقها، كما لمح للمذبحة الشنيعة التي ارتكبتها ضد المحلة الشريفة على ضفاف وادي أكسيلا، وأشار أيضا إلى المعركة الحاسمة بسيدي الغنيميين "١٥ مارس ١٩٠٨" التي كانت بمثابة مذبحة عظيمة، بلغ عدد قتلاها ١٥٠٠ شهيد مغربي، انظر:

Capitaine, Grasset, **A travers la Chaouia avec le corps de débarquement de Casablanca 1907-1908,** Hachette, 1912, p, 120.

(77) يشير الكاتب إلى إنه بعد فترة قصيرة من المذبحة، استفسر الضباط المسؤولين عن المأساة لمعرفة سبب إطلاق المدفعية الفرنسية النار على الأهالي، بعد اتفاق الطرف الفرنسي معهم على القدوم إلى المعسكر لإعلان الخضوع، إلا أن مفاجأته كانت كبيرة بسبب أن هؤلاء لم يذكروا المجزرة أصلاً، فأنى لهم أن يذكروا أسبابها.

(78) نعني بذلك أن فرنسا الاستعمارية لم تسقط من ذاكرتها هذه الأحداث الدموية/ الجرائم لأنها نالت عفو وصفح المغاربة، بل تناستها استخفافا بهم وبحقهم في الحياة.

(79) إدوارد، سعيد، **الاستشراق، المفاهيم الغربية للشرق**، ترجمة محمد عناني، رؤية للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ٢٠٠٦، ص، ٥٠.

(80) Houel, Christian**, Mes aventures marocaines**, op.cit, p. 42.

(81) Houel, Christian**, Mes aventures marocaines**, op.cit, p. 42.

(82) انظر: بوزويتة، سمير، **مكر الصورة المغرب في الكتابات الفرنسية ١٨٣٢-١٩١٢**، إفريقيا الشرق، ٢٠٠٧، الصفحات من ٤١ إلى ٩٠.

(83) Chevrillon, André, **Un crépuscule d'islam au Maroc en 1905,** Eddif 1999.

(84) Loti, Pierre, **Au Maroc,** Eddif, 2008.

(85) لا أقوم هنا بالقراءة الظاهرية أو الترجمة الحرفية للنص، بل أحاول أن أستنبط مراد المؤلف من أقواله، ولقراءة النص الفرنسي، انظر:

Loti, Pierre, **Au Maroc,** op, cit, p, 340.

(86) Houel, Christian**, Mes aventures marocaines**, op.cit, p. 71.

(٨٧) Holtzmann.

(88) Houel, Christian**, Mes aventures marocaines**, op.cit, p. 63.

(89) انظر في هذا كيف بالغ بيير لوتي في إحاطة صورة المرأة المغربية بهالة من الإثارة الجنسية الممزوجة بالسادية، باعتبارها مجرد أداة جنسية، يمارس عليها من يمتلكها شتى أنواع العنف الجسدي:

Voir : Loti, Pierre, **Au Maroc, op, cit, p, 240.**

(90) تميز بيير لوتي عن هويل، وتفوق في وصف مظاهر ملوكية السلاطين العلويين، فقدم مشهدا شاعريا غاية في الجمال والإتقان، معها نشعر وكأننا أمام متتالية بصرية سينمائية، وليس أمام نص مجدول من الكلمات، انظر:

Loti, Pierre, **Au Maroc,** op, cit, de p. 194 à p. 200.

(91) Houel, Christian**, Mes aventures marocaines**, op.cit, p. 128.

(92) Ibid, p. 11.

(93) Ibid, p. 12.

(94) Ibid, p.٤٢ .

(٩٥) انظر بهذا الخصوص مواقفه من احتلال الدار البيضاء، ودفاعه عن العنف كسبيل لتحقيق المجد

(٩٦) ألتوسير، لوي، **مونتسكيو السياسة والتاريخ**، ترجمة نادر ذكرى، التنوير، الطبعة الثانية، ٢٠١٠، ص، ١٧.

(97) من المعروف أن الرؤية الغربية لطبيعة النظام السياسي بالشرق قد تشكلت انطلاقا من قراءات هيغل ومنتيسكيو لموضوع الاستبداد الشرقي، انظر: غويتيسولو ، خوان، **في الاستشراق الاسباني**، دراسات فكرية، ترجمة كاظم جهاد، نشر الفنك، ١٩٩٧، ص،١٠٣.

(98) أوفيد، جورج، **اليسار الفرنسي والحركة الوطنية بالمغرب ١٩٠٥-١٩٥٦**، الجزء الأول دار توبقال للنشر، الطبعة الأولى، ١٩٨٧، ص، ٤٩.